المشرق

التذكار المئوي لمولد پاستور

لادارة المشرق

مقدمة

ليست هذه المرّة الاولى تخصّ فيها مجلّة المشرق صفحاتها لذكرى ذاك النابغة الذي شرّف وطنهُ واحسن الى الانسانيّة كلّها بمخترعاتهِ العجيبة واكتشافاتهِ الذهلة . فقد سبقت المجلّة وأفردت لتعريف شخصهِ الكريم مقالةً واسعة في احد اعداد سنتها الرابعة عشرة (١٩١١ : ٥١—٥٧) . بيد انّها ترى بنسبة السنة المئة لمولدهِ فرصةً جديدة لاطراء اعمالهِ ووصف مآثرهِ فتشارك بالمديح والشكر عالم العلم والمدنيّة الصادقة ولاسيما مكتبنا الطبيّ الذي عقد لذكرهِ حفلةً شائقة تصدّر فيها نيافة القاصد الرسولي ونائب المفوّض الاعظم السيو روبرت دوكاي بياناً للاخاء بين العلم والدين في شخص پاستور وحضرها وجوه البلد واعيانهُ مع شرفاء الانتداب العسكريين . وسنقتطف من تلك المحاضرات التي ألقاها اساتذة المكتب لبابها الذي يجدرُ بقرّائنا ان يطبعوهُ في ذهنهم قياماً بمعرفة الجميل نحو ذاك العالم الكبير وشكرًا للعزّة الالهيّة التي تؤيّد بعض نوابغ الرجال بروحٍ منها رحمةً ببني البشر وتلطيفاً لأوجاعهم

١ الرجل

ولد لويس پاستور في مدينة دول (Dôle) من معاملة جورا (Jura) في ولاية

فرَنش كُنْتَه احدى ولايات فرنسة التي كان ملوك اسبانية يملكونها سابقاً فكانَّهُ جمع في شخصهِ محاسن تينك الأمتين الجليلتين. فكان مولدهُ في السنة ١٨٢٢ اذ كان وطنهُ اصاب الراحة والسلام بعد الثورة الكبرى وحروب نابوليون بعودة ملوك بربون الى حكمهم القديم على فرنسة. وكان ابوهُ خدم وطنهُ في الجنديَّة فرقي الى درجة ملازم ونال وسام جوقة الشرف لما اظهرهُ من البسالة في الحرب لكنهُ لم يأنف من ان يرجع الى حرفتهِ التي كان يرتزق منها قبل الحرب وهي الدباغة. على انَّ الله كان جمَّلهُ بصفاتٍ فريدة من سموّ الفكر وثبات العزم والاستقامة في المعاملات فضلاً عن روح الدين ما احبَّ ان يورثهُ لابنهِ فأحسن تربيتهِ وأثار في قلبهِ الرغبة بالامور الشريفة والترقي فنشأ الولد منذ نعومة اظفارهِ شبيهاً بوالدهِ يتوق الى خدمة اهلهِ ووطنهِ متشبثاً بآداب الدين

واذ أنس منهُ ابوهُ النجابة وتوقّد الفهم في دروسهِ الاولى في بلدتهِ ارسلهُ الى باريس الى احد مواطنيهِ رئيس مدرسة سان لويس ليكمّل هناك دروسه لكنَّهُ وجد نفسهُ في عاصمة فرنسة كالغريب واظلمت الدنيا في عينيهِ فنكد عيشهُ وطلب الرجوع الى وطنهِ. فما كان ذلك الّا سحابة صيف ما لبثت ان انقشعت فثبَّت عزمهُ وشدَّد شكيمتهُ وعاد الى باريس ووطّن نفسهُ على العزلة والمثابرة على الدرس والحياد عن ملاهي الشبَّان صيانةً لطهارة قلبهِ وصفاء ذهنهِ. فكانت ثمرة عزيمتهِ انهُ احرز بوقت قريب العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة التي تؤهلهُ للمناصب الاولى في التعليم بل اتخذهُ رئيس المدرسة وهو بعدُ من جملة الدارسين ليلقن تعاليم الاساتذة رفاقهُ الذين كانوا دونهُ نهباً فوجدوهُ نعم الاستاذ

ولما قدَّم الامتحانات المعهودة لنوال شهادات الباكلورية ثمَّ المأذونيَّة ثمَّ الملفنة كان رأي الجمهور العام انَّ هذا الشابَّ زينة وطنهِ وقدوة رصفائهِ. وكان مع شظف عيشهِ وقلَّة ذات يدهِ يوفّر مالهُ لمساعدة المشروعات الوطنيَّة والخيريَّة. فعلم ابوهُ بمروءتهِ واريحيَّتهِ فهنَّأ نفسهُ بمثلهِ ولداً كريم السجايا شهماً عالي الهمَّة

ولا عجب بعد ذلك ان ارباب الامر عهدوا اليهِ في السنة ١٨٤٨ وعمرهُ ٢٦ سنة تعليم الكيميا في كليَّة ستراسبورغ حيث حلَّ ضيفاً كريماً على رئيسها السيّر لوران فكان في بيتهِ كأحد اعضاء عيلتهِ. واذ خطب اليه ابنتهُ مصرّحاً بانهُ لا ثروة لهُ

سوى ما يكسبهُ بالتعليم لم يتردد الرئيس في ان يجود عليهِ بكريمتهِ لما عرفهُ من ذكائهِ وفضيلتهِ . والحقّ يقال انهُ قلّما وُجد زوجان تهنأ مثلهما بمرافق الزواج فكان اقترانهما بالنفس والعواطف امتن منهُ بالجسد وحطام الدنيا وبارك بهما الله بأن منحهما ذرّيّة صالحة كانت فرحهما وتعزيتهما لولا انهُ تعالى استأثر بحياة البعض منها ومع اسفهما عليهم لم يستسلما الى القنوط بل قبلا تلك المحن من يدهِ تعالى بالتسليم لمشيئتهِ الصمدانيّة . وتكرّرت هذه المحنة على المسيو باستور بوفاة والدهِ الذي كان يكرمهُ ايّ اكرام ويعزّهُ كأبرّ البنين وحظي برضاه طول حياتهِ فأسرع اذ علم بمرضهِ في السفر لينال بركتهُ الاخيرة فوجدهُ جثّةً هامدة بألها بدموعه . ولدينا الكتاب الدالّ على عواطفهِ البنويّة الذي وجّههُ الى امرأتهِ واولادهِ في تلك الاثناء

ومحبّة باستور هذه لم يحصرها في ذويه بل بسطها بعد قليل نحو كلّ الذين اختلط بهم من اساتذة وعلماء وتلامذة ومرؤوسين يرى في الاحسان الى الجميع سروراً وارتياحاً . وكان يتفانى في خدمة الكلّ ويظهر في سائر معاملاتهِ انيساً لطيفاً صبوراً ذا بساطة واخلاق رضيّة تحبّبه لكل من يقترب اليهِ فيضحّي في سبيلهم وقتهُ الثمين . وكان لطفهُ هذا يشمل حتى الاطفال الصغار والاحداث يرى فيهم كما كان يقول رجال الغد فيعاملهم بحنان خاصّ

وكان باستور في ما خلا خدمة الجمهور ضنيناً بوقته يأبى كلّ ما كان يشغلهُ عن ابحاثهِ فلا يحضر الاجتماعات الدالية والحفلات المتكهة والمسارح ومسامرات السّهر

وممّا امتاز بهِ العلّامة باستور نزاهتهُ وعفّتهُ فانهُ كان يمكنهُ ان يربح من اشغالهِ مالًا وافراً فأبى ان يُتاجر بمعارفه متفضّلًا على منافعهِ الشخصيّة خير وطنهِ واعلاء منار العلوم . وكان اذا وجد في زملائهِ طمعاً في المال يبكّتهم ويزجرهم لبخسهم كرامة العلم

٢ الفرنسي والوطني

قد تجسّمت في باستور روح الفرنسويين الطيّبة اعني بها الإقدام والنشاط والنخوة فلا تعيقهُ الصعوبات ولا تثبط عزيمتهُ المشاكل فاذا باشر عملًا لا ينقطع عنهُ حتى يستوفيهُ ويحقّق منهُ آمالهُ

وكان كأحرار الفرنسويين يحنّ لكل ذوي البأساء من أمته ومن الاجانب .

بلغهُ سنة ١٨٤٣ ما حلّ ببولونية من البلايا تحت نير روسيّة الثقيل فجعل يجمع المال لاسعاف أهلها ولم يباشر كثيرًا من الجائزة العلميّة الّا لتلطيف بلايا العَمَلة والصنّاع والمزارعين والمبتلين بالاوبئة حتى انَّ احد وصفائهِ قال عنهُ : انَّ رقّة قلبهِ كانت بمثابة سعة عقلهِ وسموّ ادراكهِ

وكان مع ذلك قد بلغ حبُّهُ لوطنهِ مبلغاً عظيماً فكان اذا وقف على بعض اسرار الطبيعة لا يفرح الّا لما سينال فرنسة من المجد بسببهِ

وكان اذا حلّ بوطنهِ رزء يتأثّر منهُ ايّ تأثير كما حدث في حرب المانية وفرنسة سنة ١٨٧٠ فانهُ امتعض لما رآهُ عياناً من همجيّة الجيوش الالمانيّة فكسف بالهُ وعيل صبرهُ وردّ لكليّة بونّ الالمانيّة وسام الشرف الذي كانت اهدتهُ اياه ولم يشأ منذ ذاك الحين مكاتبة الالمان. واذ فاتحهُ الامبراطور غليوم الثاني سنة ١٩١٤ بواسطة سفيرهِ ليمنحهُ بعض امتيازات دولتهِ رفضها بتاتاً

ولما دُعي الى المؤتمرات العلميَّة في لندن وفي جنيفة وفي كوبنهاغ ليمثل فيها دولتهُ كانت تَرِنُّ معاهد الاجتماعات بتكرار اسمهِ والثناء العظيم على خدمهِ العديدة للعلوم فكان لا يكاد يعبأ بذلك وانّما يُسَرّ بهِ لما تصيبهُ فرنسة من الشرف وكان اذا رجع الى باريس لا يذكر شيئاً مما جرى سوى قوله : « قد نالت فرنسة ما تستحقُّهُ من المجد الاثيل فوق سواها » . وكان لا يرفع صوتهُ في جدال غيرهِ من العلماء الّا اذا بُخس حقّ وطنهِ وخاف تغلّب الباطل على اليقين

٣ العالِم النابغة

لو اردنا الاتساع في هذا الباب لضاقت عن استيفائهِ اعدادٌ من المجلّة وانّما نكتفي بذكر ما ادّاهُ من الخدم لبعض العلوم فخطّاها خطوات بالغة لم تحصل على مثلها قبلهُ

❁ باستور وجوامد الكيميا ❁ سبق انَّ باستور عُهِد اليهِ اوّلًا تعليم الكيميا فكان باكورة اكتشافاته انَّهُ بيَّن ما يوجد من العلاقة بين اختلاف استقطاب النور في التبلّورات واستدارة ذاك النور المستقطب في الملح الطرطيري فوضع اساس علمٍ جديد يدعى علم جوامد الكيميا (Stéréochimie) فاستنتج ان الاختمارات الجارية في الاجساد انما هي نتيجة ظواهر غذائيّة علّتها بعض الجراثيم الدقيقة التي تتسلّط على

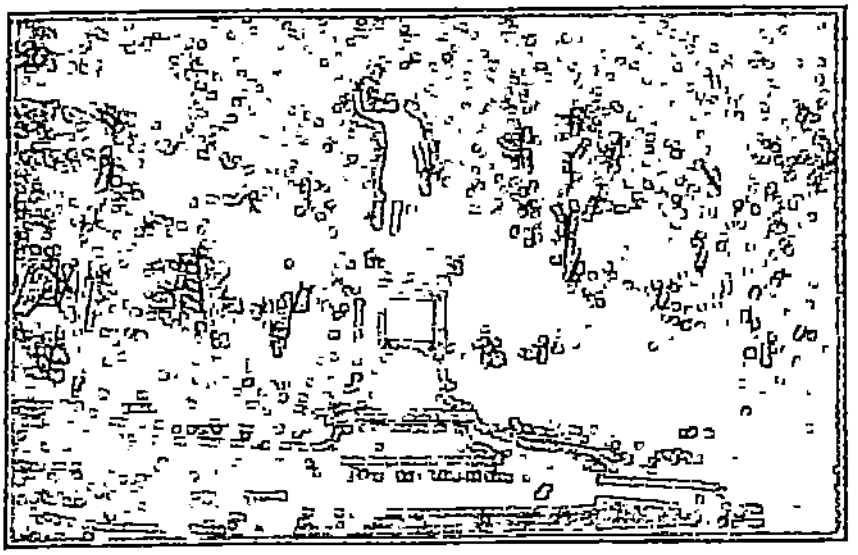

١ تمثال باستور للنحات شاليو في المرن

ترى عند اقدامه شاباً عضّهُ كلب كَلِب رافعاً عينهُ الى طبيبهِ

٢ تمثال باستور للنحات طوني نويل

صوّره وفي يده غصن من الأريقي ملتصقة به فيالج دود القز

المواد الكيموية وتؤثر في تركيب دقائقها وبذلك انشأ علماً آخر يدعى الكيميا الحيوية (Biochimie) اتصل الى ثبات نواميسه بالمراقبة المجهرية

﴿ باستور وعلم الاختمارات ﴾ أدت اكتشافات باستور الآنف ذكرها الى اكتشاف علم آخر اعظم شأناً وهو فعل تلك الجراثيم في مركبات الكحول والسكر واختمارات المشروبات الكحولية كالخمر والجعة واسبابها . فبيّن انّ تلك الاختمارات الكحولية ليست مفعول التركيب الكيموي المحض والتولّد الذاتي بل هي مفعول جراثيم وحُيَيوينات تتوالد وتتناسل في الجوّ فتتّصل بتلك المشروبات سواء كانت سكّرية او كانت حوامض فتخمّرها ولولاها يستحيل التخمير ومن ثمّ لا صحّة لقول الزاعمين بتولّد الحياة الذاتي بل كلّ حيّ من حيٍّ آخر . واتى لاثبات ذلك بأدلّة قاطعة فانّهُ بتعقيم تلك المواد منع عنها كلّ جراثيم الهواء فأبقاها اشهراً بل سنين دون فساد ولا اختمار . وبذلك قطع لسان كل خطيب ودكّ دعائم الدروينيّة والمادّيين واشباههم مع وضعهِ النواميس الثابتة لحسن استحضار الخمور والجعة بالطريقة المنسوبة اليه (pasteurisation) بتسخينها الى الدرجة ٥٥ من المقياس المئوي

﴿ باستور وعلم الميكروبات ﴾ هو عالم جديد اوحى بوجودهِ باستور فان اكتشافهُ للجراثيم الحيّة في الهواء والمختمرات مهّد لهُ السبيل الى توسيع ابحاثهِ فأنشأ علم المكروبات او النقاعيّات (Bactériologie) والجراثيم الدقيقة التي لا يُوقف عليها الّا باكبر النظّارات والمُجهرات وهي العلّة لكثير من الادواء والاوبئة كما اثبت ذلك في علل دود القزّ التي كانت أُصيبت بالداء البهاري (pèbrine) وداء الذُبلان (flacherie) فتفشا الداءان بسرعة عجيبة في كلّ انحاء اوربّة وسوريّة والصين وفقد المربّون لها ملايين من الدراهم بسببها وكادت تتلف صناعة الحرير لولا باستور الذي تمكّن من معرفة تينك العلّتين والطريقة الكافلة بعلاجها

﴿ باستور وعلم الطبّ ﴾ كان الطبّ الى عهد باستور محدّداً منحصراً في امتحانات الاقدمين وعلاجاتهم المبنيّة على التجربة فوسّع باستور نطاقهُ وجعلهُ علماً راسخاً مستنداً الى اصول نظريّة تؤدي بالطبيب الى حسن تشخيص الداء وتمييز ما يلزمهُ من الدواء

وكان الاطباء قبلهُ عاجزين عن معالجة عدّة علل واوبئة كداء الجمرة والهواء

الاصفر والطاعون والحُمّى التيفونيدية فأثبت لهم الطريقة لشفائها بالتطعيم بان يُستخرَج مصل الحيوان المصاب بهذه الادواء بعد تلطيفه ويطعَّم به الحيوان السالم الجسم ومثلهُ الانسان فيكتسبان قوّة الوقاية المانعة عنهما تلك الاوبئة وهو الشفاء من الميكروبات بواسطة الميكروبات نفسها وذلك علم البكتريوثرابيا (-Bactériothé rapie) . وبوقوفهِ على الجراثيم الاوبئة وتهيئتهِ للتصل الشافي لسومها أدى باستور خدماً جليلة لعلم آخر وهو علم الأمراض وعللها (Pathologie) وانشأ علم العلاج بالمصول (Sérothérapie) الذي واصلهُ تلميذهُ الدكتور رُو (Dʳ Roux) فنال باستحضار المصول شهرة واسعة

﴿باستور وعلم الجراحة﴾ انَّ الجرّاح كان قديماً اذا عمل عمليَّة من قطع او بَتر وما شاكلها لا يلبث في الغالب جريحهُ ان يودّع الحياة لآكلةٍ تصيب الجريح بسبب جراثيم الهواء والآلات الجراحيَّة وايدي العاملين . فاوقفهم باستور على طريقة التعقيم امَّا بقتل تلك الجراثيم (antispésie) وامَّا بمنع دخولها (asèpsie) فتمكَّن ارباب الجراحة في عهدنا من اجراء عمليَّات عجيبة ما كانت لتخطر على بال احد سابقاً وذلك دون خطر وبنجاح تامّ

﴿باستور وعلاج الكَلَب﴾ كان باستور في العلل والاوبئة السابقة اكتشف جراثيمها المعدية فامكنهُ مناهضتها وإتقاء شرورها . امَّا الكَلَب فلم يمكنهُ الوقوف على جرثومتهِ القتّالة وانَّما كان يعرف سمَّهُ فقط فجرى على طرائقهِ العلاجيَّة السابقة بتلطيف قوَّة ذلك السمّ والتطعيم بهِ ملطَّفاً فيبرأ الكَلِب من دائهِ . كما ترى ذلك يومياً في مكتب الطبّ الفرنساوي حيث يتوارد المعقورون من الكلاب فيشفون اللهمَّ اذا اسرعوا الى التداوي قبل تفاقم الداء

تلك حفنة من كثيب من اكتشافات ذلك العلّامة فريد عصرهِ الذي انقذ من الموت اكثر مما اتلفتهُ الحرب الاخيرة من الجيوش فيستحقّ دون غيرهِ ان يُدعى اكبر محسن الى البشريَّة جمعاء بل شرفها وفخرها وتاجها وان تُقام لذكرهِ التماثيل في سائر انحاء المعمور

٤ المذهب والمبدأ

قلنا انَّ باستور كان احقّ واصدق شاهد على انَّ العلم والدين اخوان . وها نحن

نذكر الادلّة الساطعة على تديُّن باستور وقيامه بواجبات دينه

اشرق الله شعاعاً من نوره الالهي على عقل باستور فلم يُسعهُ ذلك النور فقط في اكتشافاته العديدة لاسرار الطبيعة الغامضة بل انارهُ ايضاً في معرفته الحقائق الازليّة

بنى باستور اكتشافاته المختلفة على الامتحان متحايداً عن كلّ ما يُحمَل على التخريص والتخمين مع قطعه النظر عن آراء الفلاسفة ومذاهب المتجادلين الّا انهُ عرف انَّ للعلم الوضعي حدوداً لا يستطيع ان يتخطّاها . فمن قوله «انَّ في الانسان وجهين متباينين اعني بهما : الرجل العالم الذي يحكم في العناصر الكونيّة كما تلوح لهُ في جواهرها وظواهرها ضارباً الصفح عن الظنيات . والرجل الفطريّ الذي يتوق الى ما يسندهُ في الاوجاع ومشاكل الحياة وللدين المقام الاوّل في ذلك لا يجوز للعالم ان ينتهك حماه »

ومن ثمَّ كان باستور ثابت الاعتقاد في وجود الخالق وخلود النفس وما ينتظرها في الآخرة من ثواب او عذاب لاجل اعمالها لاسيّما بعد ان نقض بالدليل العلمي رأي الماديين بتولُّد الحياة الذاتي

ولمّا اختارتهُ جمعيّة العلوم الكبرى في باريس خلفاً لليتره (Littré) الذي كان عاش كافراً ولم يهتدِ الى الايمان الّا عند ساعة موته لم يأنف باستور في خطبته لدى المجمع يوم انضمامه اليه بان يندّد بمعتقد ليتره وكفره كما اقرَّ بذلك صاحب المقتطف في عدده التاسع من السنة ١٩١١ (ص ٨٠٥)

ولم يكتفِ باستور باعتقاد الحقائق الدينيّة الفلسفيّة بل طأطأ رأسهُ امام اسرار الكنيسة والوحي الالهي واخذ على نفسه القيام بواجبات دينه كما انَّهُ هذَّب اولادهُ بمقتضاها

ومن درر كلامه في تلك الحفلة التي كان يحضرها رنان الملحد قولهُ :

«طوبى لمن يحمل الله في باطنه ويخضع لهُ قهو عزَّ وجلَّ مثال كل الجمال مثال العلم مثال الوطنيّة مثال الفضائل الانجيليّة فتلك هي الينابيع الحيّة للافكار السامية والاعمال الشريفة . وكلُّها تسطع بأنوار الالوهيّة »

وكان كل صباح اذا سار الى مختبره الكيموي يحيد عن طريقه ليذهب الى كنيسة القديس اسطفانوس (St Etienne-du-Mont) فيخرّ ساجداً لله قريباً من قبر القديسة جنوفيفا شفيعة باريس فكانت عواطفهُ الدينيّة تسندهُ في اشغاله الشاقّة وتجدّد

له الطريق الى اعظم الاكتشافات والى ذروة المجد حتى اصاب من الامتيازات الشرقيّة ارفعها لاسيّما لمّا بلغ السنة السبعين من عمره فأُقيمت لهُ حفلات شائقة اشترك فيها علماء العصور فكان العالم باجمعه صوتاً واحداً للثناء عليه وإطراء فضله

لكنَّ عبءَ السنين كان يزدادُ ثقلاً على اتاقه فشعر بقرب أجله وكان اوّل ما فكّر به ان يدعو مرشد ضميره الاب بولانجان الراهب البندكتي . وبعد ان تزوَّد اسرار الدين وبارك عيلتهُ واستودع اصحابهُ الحصدقين بفراشه اسلم روحهُ لخالقه ويدهُ اليسرى في يد امرأته وفي يمناهُ صليب المسيح الذي كان يكرّر تقبيلهُ . فكانت وفاةُ هذه الصالحة في عصر اليوم ٢٨ من ايلول سنة ١٨٩٥ وكان لمنعاهُ رنَّة اسف سُمع صداها في انحاء فرنسة بل في اقاصي المعمور واحتفلت باريس بحفلة جنازته احتفالها باعظم رجالها . وبعد الصلاة عليه دُفن في معبد صغير كما كان اوصى به في وصيته الاخيرة فصار قبرهُ منذ ذاك الحين مزاراً تتناثر فوقهُ مع صلاة الزوّار على راحة نفسه آيات الشكر والثناء على مآثره المخلّدة . فبكل صواب اقبل العالم على تكرار عرفان الجميل اليه بنسبة تذكار مولده الشريف اجزل الله ثوابهُ في دار البقاء

ترجام القيامة المقدَّسة

لاجاثليق ايليا الثالث المعروف بابي الحليم بن الحديثي

عُني بنشره الاب لويس شيخو اليسوعي

تمهيد

بين المخطوطات القديمة التي دخلت مكتبتنا الشرقيّة منذ عهد قريب سفرٌ جليل كتب في مصر سنة ٧٠٤٣ لآدم الموافقة لسنة الميلاد ١٥٣٥ فيه مجموع تراجيم اي خطب للاعياد السيّديّة في عدد ٣٢ خطبة نُشر ١٦ منها في الموصل في كتاب التراجيم السنيّة للاعياد المارانيّة لايليا الثالث ابن الحديثي احد بطاركة الكلدان النساطرة المتوفّى في القرن الثاني عشر سنة ١١٩٠